الإمبراطورية ترد بالكتابة: آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق

آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق

لـ"بيل أشكروفت ، جاريث جريفيثيز، هيلين تيفين

ترجمة: خيري دومة

عرض: د. عمر زرفاوي

***- فاتحة العرض:**

يأتي عرض هذا الكتاب في وقت تزايد فيه الاهتمام بدراسات ما بعد الكولونيالية كاتجاه نقدي يهدف إلى تفكيك الخطاب الإمبريالي؛ وذلك بإعادة المركزية إلى كلّ ما همشته ثقافة المركز الميتروبوليتاني، الثقافة التي تلقى اليوم مقاومة إبداعية من دول المحيط ،يصطلح عليها بآداب ما بعد الاستعمار القائمة على ردّ« المُستعمَر(بفتح الميم) بالكتابة على المُستعمر(بكسر الميم)في علاقة التابع بالمتبوع التي لا تزال توتراتها القائمة على التراتب القمعي المفروض من الشمال على الجنوب، وعلى مقاومة الجنوب للشمال»(1)، فبالإضافة إلى حديث لفيف من النقاد العرب عن ذلك الانتقام الجسدي(الجنسي) للشرق من الغرب في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح – رحمه الله– يحضر ذلك الرّدُّ بالكتابة؛ ردُّ الشرق على الغرب.

ومن خلال هذه الفاتحة يدرك القارئ دلالة العنوان، فالعنوان– يقول المترجم في تقديمه – :«جزء من عبارة لسلمان رشدي، يتحدّث فيها عن أطراف الإمبراطورية القديمة وهوامشها في الهند وأفريقيا والكاريبي، وهي الأطراف والهوامش التي أخذت تردُّ – بقوّة الكتابة وأساليبها– على المركز الإمبراطوري الاستعماري في محاولة لـ"الاستحواذ" على ما كان يملكه هذا المركز من سلطة متنوعة ومركبة ،وهو الأمر الذي شكّل في النهاية ما أصبح يعرفُ بأدب أو آداب أو كتابات ما بعد الاستعمار » (ص7).

هذا ما يتعلّق بعنوان الكتاب، أمّا في ما يخص المترجم فهو الباحث الجادّ المصري "خيري دومة "الذي أعدّ دراسة قيّمة عن الرواية من منظور خطاب ما بعد الاستعمار بعنوان "عدوى الرحيل: موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار"،وهي دراسة ممتعة كانت محط إعجاب المفكر والناقد "جابر عصفور" الذي قال عنها :«هي دراسة تقوم بتسليط الضوء على ردّ المقموع، وما يتصل بذلك من معضلات الهوية، والتمزّق بين ثنائيات الأنا والآخر، خصوصا في علاقة أبناء المستعمرات بالدول المستعمرة»(3).

ولا غرو بعد ذلك أن يترجم الباحث "خيري دومة" كتابا بهذه الأهمية، فهو – كما يذكر في تقديمه– «من الكتب الأولى التي تدرسُ حركة آداب ما بعد الاستعمار، وتتابع روافدها المتنوعة في أماكن مختلفة من العالم الثالث ، وتفاعلها أو تجاوبها العميق مع مجمل النظريات والحركات التي خرجت من رحم الفكر الأوروبي الحديث. ورغم الطابع المدرسي للكتاب ، وربما بسبب [ذلك]الطابع ، احتّل مكانا متقدّما في كل الدّراسات التي جاءت بعده حول آداب ما بعد الاستعمار؛ أي أنّه غدا كتابا تأسيسيا يعود إليه الباحثون في المجال»(ص7).

***- فصول الكتاب ومحتوياته:**

والكتاب-من الناحية البيبليوغرافية-صادر عن دار "أزمنة" للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة العربية الأولى،2005، ومتضمن مقدمة، وخمسة فصول، وخاتمة:

*- مقدمة:

*- **الفصل الأول**: تمهيد الأرض :المداخل النقدية لآداب "ما بعد الاستعمار".

*- **الفصل الثاني**: إحلال اللغة: إستراتيجيات نصية في كتابة "ما بعد الاستعمار".

*- **الفصل الثالث**: إحلال النص: تحرر كتابة "ما بعد الاستعمار".

*- **الفصل الرابع**: النظرية في مفترق طرق: النظرية الأدبية وقراءة "ما بعد الاستعمار".

*- **الفصل الخامس**: إعادة تقييم النظرية: كتابة "ما بعد الاستعمار" والنظرية الأدبية.

*- **خاتمة**: إنجليزيون أكثر من الإنجليز.

افتتحت المقدمة بسؤال عن معنى "آداب ما بعد الاستعمار"، وقد اقتضت الإجابة عن ذلك تحديد المؤلفين لأطروحة الكتاب المركزية، ففي الصفحة الأولى منها نجد قول المؤلفين– وهم بصدد تحديد معنى آداب ما بعد الاستعمار– :«هذا الكتاب معنيّ بكتابة تلك الشعوب التي استعمرتها بريطانيا في الماضي، رغم أن جزءا كبيرا ممّا يتناوله الكتاب وثيق الصلة بأقطار

استعمرتها قوى أوروبيّة أخرى كفرنسا والبرتغال وإسبانيا»(ص25) ، ثمّ تحدّث مؤلّفو الكتاب عمّا أضفته البادئة "ما بعد Post" من دلالات جديدة تتناسب مع تحوّلات النظرية الأدبية المعاصرة، وبخاصة النقد الجديد العابر للثقافات.

ثم تحديد مراحل تطوّر دلالات مصطلح "ما بعد الاستعمار - Post Colonial"، فقد استخدم المصطلح للإشارة إلى الآداب القوميّة وحدها بعد زوال القوى الإمبرياليّة تارة، وللتمييز بين فترات ما قبل الاستقلال وما بعده("المرحلة الاستعمارية"، و"مرحلة ما بعد الاستعمار ") تارة أخرى، وحرصا من مؤلفي الكتاب على تقديم الأداة المصطلحية قبل الاشتغال لقيّ مصطلح "ما بعد الاستعمار-Post Colonial"سعة مفهومية جعلته يغطي كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الإمبريالية من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي. وخلص المؤلّفون بعد ذلك إلى تحديد الآداب التي تنضوي تحت هذا الاصطلاح ، وهي؛ (آداب البلاد الإفريقية، وأستراليا، وبنجلاديش، وكندا، وبلاد البحر الكاريبي، والهند، وماليزيا، ومالطة ، ونيوزيلندا، وباكستان، وسنغافورة، والجزر الواقعة جنوب المحيط الهادي، وسريلانكا).

ولم يمنع وضع الولايات المتحدة الأمريكيّة بعد الحرب العالمية الثانية والدور الاستعماري الذّي تؤدّيه من إدراج أدبها ضمن تلك الآداب، فعلاقتها مع المركز الميتروبوليتاني، كما ظهرت في القرنين الماضيين، كانت مثالا يحتذى بالنسبة لآداب ما بعد الاستعمار في كلّ مكان، واختتمت الإجابة عن ذلك السؤال الافتتاحي بالشروط التي تسمح لأدب ما الانضواء تحت مصطلح" آداب ما بعد الاستعمار" وهي، (الشرط الزمني، الشرط الإقليمي، الشرط التاريخي).

وقد حوت المقدّمة مبحثين اثنين:

أوّلهما: آداب ما بعد الاستعمار ودراسات "الإنجليزيّة" ،وفيه تمّ التّعرض لتلك المرحلة التاريخيّة التي شهدت ظهور "الإنجليزيّة" علما أكاديميا، وما صاحبها من تشكّل للتّوجه الاستعماري من الإمبرياليّة في القرن التاسع عشر، وهنا فصّل الكُتّاب الحديثَ عن تحوّل "الإنجليزية"؛ (لغة، وأدبا، ودراسات أدبية) إلى مؤسّسة تتولى الدّفاع عن مصالح المركز الميتروبوليتاني ، وأيديولوجيا مسوّغة لأطماعه في الهيمنة الشاملة على سائر أطراف الإمبراطوريّة. وكردّ فعل على أيديولوجيا المركز وممارساته حاولت عناصر من المحيط أن تقوّض ذلك التمركز الميتروبوليتاني ، ولكنّها فشلت وانحسرت للأسباب الآتية:

01-إستراتيجية الاحتواء التي اعتمدها المركز في تبني أولئك القادمين من الهامش.

02- اندماج أولئك القادمين من الهامش في الثقافة المستوردة والتّنكّر لأصولهم في محاولة لأن يكونوا "إنجليزيين أكثر من الإنجليز" من أمثال "هنري جيمس" و"ت. س. إليوت".

وبعد ذلك توجّه مؤلفو الكتاب صوب الإجراءات العمليّة التي اعتمدتها مجتمعات "ما بعد الاستعمار" في تأسيس اختلافها عن بريطانيا ، وذلك بعد أن أدركت ذلك التواطؤ بين اللغة والتعليم، والاندماج الثقافي كفصم العلاقة بين اللغة والدراسات الأدبيّة عبر شطر أقسام "الإنجليزيّة" في الجامعات إلى مدارس منفصلة للغويات من ناحية، وللأدب من ناحيّة أخرى، وقد حدث ذلك بوجه خاص في إفريقيا، أمّا معظم أمم "ما بعد الاستعمار" في الهند الغربيّة والهند فقد قاومت بضراوة محاولات تفكيكها.

ثانيهما: تطوّرات الآداب ما بعد الاستعماريّة، وفيه تمّ تقصّي المراحل الثلاث لتطوّرها:

01- المرحلة الأولى(الفترة الإمبرياليّة): كانت الكتابة بلغة المركز قدرا محتوما وحتميّة لا فكاك منها، ويذكر أصحاب الكتاب أنّ ما كُتِبَ في الفترة يُنسَبُ لصفوة متعلّمة متطابقة الهويّة مع القوّة الاستعماريّة: المستوطنين الأرستقراط، الرّحالة والجوّالين، مديري المستعمرات ، الجنود ،الخدم، زوجات الموظّفين البريطانيين في الهند.

02-المرحلة الثانية: تميّز أدب المرحلة الثانية- أدب "السّكان الأصليين" أو "المنبوذين" بترخيص إمبريالي، و"الأدب التبشيري" الإفريقي- بحَمْلِه تِيمات مضادة للإمبريالية ،وعلى الرغم من هذا التّميّز إلاّ أنّها لم تستطع الكشف بشكل كامل عن تلك التِيمات، وذلك لسببين اثنين:

*- التدجيل الذي طال منتجو هذه الآداب، كونهم من الطبقة العليا الذين تعلّموا الإنجليزية، فمؤلّفو تلك الآداب.

*- حتمية مسايرتها لتقاليد المؤسّسة الثقافية المهيمنة الموجّهة من قبل الطبقة الإمبريالية الحاكمة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى صعوبة انفلاتها من الرقابة المطبعيّة الخاضعة لنظام الحماية الاستعمارية.

03- أمّا في المرحلة الأخيرة، أي الفترة التي سبقت استقلال كثير من البلدان الإفريقيّة والآسيويّة، فقد بدأنا نرى صورة لا تتحكّم فيها قيود الحَجْرِ والمنع، فانطلق كُتّابها يصوّرون كل جوانب التجربة الاستعماريّة، متخلّصين من القوة المقيّدة التي كانت تحكمهم في السابق، وبلغة جديدة ومميّزة. وبعد تتبّع تطوّر الآداب ما بعد الاستعماريّة بمراحلها الثلاث، والتّعرّف على أبرز تيماتها وخصائصها الفنيّة تساءل مؤلّفو الكتاب عن الدّافع الكامن وراء حاجة الإمبراطوريّة للرّد بالكتابة؟

وللإجابة عن هذا السّؤال المفصلي كشف مؤلّفو الكتاب حقيقة تجذّر التّقاليد الثقافية-(وبما فيها الأدبية)- لتصير مؤسّسة؛ فإبطال البنيّة الإمبرياليّة بالمعنى السّياسي لا يعني إبطالها بالمعنى الثقافي، فالتّقاليد الأدبية البريطانيّة بقيت مهيمنة فيما يتصل بالذّوق والقيمة، وذلك بإبداء المركز لمواقف تبخس قيمة آداب ما بعد الاستعمار، وتُعَرِّفُهَا بأنّها مجرّد لقطات جانبيّة من الأدب الإنجليزي، وتقلّصها من ثم إلى مواقع هامشيّة تابعة.

وقد خصّص الفصل الأوّل للحديث عن المداخل النّقدية لآداب ما بعد الاستعمار، وفيه بيّن مؤلّفو الكتاب أنّ طبيعة نصوص ما بعد الاستعمار هي التي فرضت تطوير مداخل مناسبة لبحثها، وهي أربعة مداخل؛ (المدخل القومي أو الإقليمي، المدخل العرقي، المدخل المقارن، المدخل المقارن الأكثر شموليّة)، وأشاروا أيضا أن الطبيعة المخصوصة لتلك النصوص افترضت التركيب بين أكثر من مدخل، وبشيء من التفصيل أرّخ مؤلّفو الكتاب لأوّل أدب ما بعد استعماري، فالولايات المتحدة الأمريكيّة هي أوّل من طوّر أدب ما بعد استعماري قومي ساءل صلاحيّة الأشكال الأدبية الموروثة عن المركز الميتروبوليتاني.

واحتوى الفصل الثاني حديثا عن إستراتيجيّة كتّاب "ما بعد الاستعمار" في نزع وإلغاء الطّابع الاستعماري عن اللغة والكتابة الإنجليزية ثمّ الاستحواذ على اللغة وتهيئتها لتحمل التجارب الثقافية والأدبية الخاصة لأولئك الكتّاب، فلا مناص لكتابة" ما بعد الاستعمار"- إن أرادت تقديم نفسها وتحقيق وجودها- من تنفيذ عمليّتين محدّدتين:

1-إلغاء مكانة الإنجليزية أو التّنكر لهذه المكانة ، وهو ما ينطوي على رفض لسيطرة القوّة الميتروبوليتانيّة على وسائل الاتّصال.

2- الاستحواذ على لغة المركز إعادة صياغتها، فعمليّة السيطرة على اللغة، وإعادة صبّها في استخدامات جديدة هي العمليّة التي تواكب الانفصال عن موقع الكتابة الاستعماريّة العليا.

ونحا الفصل الثالث منحى تطبيقيا قارب من خلاله مؤلّفو الكتاب نصوصا لكتّاب" ما بعد الاستعمار" استخلصوا منها خصائص ثلاثة هامة :

*- إسكات الصّوت ما بعد الاستعماري وتهميشه من المركز الاستعماري.

*- إلغاء هذا المركز الاستعماري داخل النّص.

*- الاستحواذ النّشط على لغة المركز وثقافته.

وقد تحقّق ذلك عبر هدم أشكال فنيّة كولونياليّة ، والصّراع على مستوى التّيمات.

ولمّا كان المأمول- بعد إحلال اللّغة وإحلال النّص عبر آليّتي الإلغاء والاستحواذ اللّتين اعتمدتهما كتابة" ما بعد الاستعمار" لتحقيق الاختلاف والتمايز عن المركز الميتروبوليتاني- فقد عرض الفصل الرابع من الكتاب إلى محاولات نقاد" ما بعد الاستعمار" تطوير نظريات أدبية وطنيّة تناسب عمليّتي الإلغاء والاستحواذ ، فبرزت النظريات الأدبية الهندية، والنظريات الأدبية الأفريقية، والنظرية الأنجلوفونية الاجتماعية والوظيفيّة ونظريات منطقة الكاريبي. لقد عملت نظريات ما بعد الاستعمار كما يقول مؤلّفو الكتاب:«باستمرار وعنف- سواء في مجال اللغويات أو الفلسفة ، أو النظرية الأدبيّة- على تعطيل الفرضيات المعترف بها في النظريات الأوروبية. والتعقيدات التي حجبتها فرضيات الأحادية والكونيّة، تعرّضت للفحص الدّائم من قِبَل النزعات الهامشيّة والتعددية، إلى الحدّ الذّي تمّ معه - عبر عمليّة إزاحة- إعادة تقييم النظرية وتغيّيرها »(ص191).

أمّا الفصل الخامس فعنونه أصحاب الكتاب بـ"إعادة تقييم النظرية، كتابة ما بعد الاستعمار والنظرية الأدبيّة"، واشتمل على ستة عشر مبحثا، وفيه حدّدوا مناطق التّداخل بين " النظرية في آداب ما بعد الاستعمار" وبين الحركات الأوروبيّة المعاصرة؛ (ما بعد الحداثة ، ما بعد البنيوية ، النقد الأيديولوجي الماركسي المعاصر، النقد النسوي)، ووقفوا على مفاصل التعالق بينهما، وما تقدّمه تلك الحركات أو النظريات من معالم توضيح لبعض القضايا الحاسمة التي يتناولها النص ما بعد الاستعماري، ودعا المؤلّفون إلى تحاشي أمرين اثنين:

1- الفرضية القائلة بأن تلك الحركات أو النظريات تنسخ ما هو محلي وتحل محلّه.

2- إثبات الاستقلال الكامل للنظرية في آداب "ما بعد الاستعمار" عن تلك النظريات الأوروبية المعاصرة لها، وأنّ هذه الأخيرة مجرّد سياقات وقعت في إطارها التّطوّرات الأحدث لنظرية" ما بعد الاستعمار".

وانتهى المؤلّفون إلى أنّ تلك النظريات الأوروبيّة وفّرت الشروط اللاّزمة لتطوّر نظرية" ما بعد الاستعمار" في شكلها المعاصر، كما أنّها حدّدت طابعها الحالي في معظمه وحدّدت مضمونها. وجاءت خاتمة الكتاب حاملة لعنوان" **إنجليزيون أكثر من الإنجليز**"، وفيها خلص مؤلّفو الكتاب

إلى جملة من النتائج أهمّها: مساءلة مشروع "الكتابة ما بعد الاستعماريّة" لإستراتيجيات الخطاب الثقافي الكولونيالي في الهيمنة والاحتواء على ثقافة الهوامش مع فحص الوسائل التي مكّنتها من ذلك ، وإعادة كتابة /قراءة تاريخ التعالق الثقافي في إطار منطق الهجنة الذي يستبعد تصوّر أو إعادة تصوّر نقاء ثقافي مطلق كالذّي كان سائدا أيام الهيمنة الميتروبوليتانية.

الهوامش والإحالات

(*)- العنوان الأصلي للكتاب: The Empire writes Back.Theory and Practice in Post Colonial Literatures.، وقد تم نقله إلى اللغة العربيّة بأكثر من ترجمة، ومن تلك الترجمات :

- خيري دومة : "الإمبراطورية تردّ بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار، النظرية والتطبيق"،دار "أزمنة" للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة العربية الأولى،2005.

- ثائر ديب: الإمبراطوريّة تكتب ردّها: النظرية والتطبيق في آداب ما بعد الاستعمار"، وذلك من خلال ترجمته لمقال "دوغلاس روبنسون ""الترجمة والإمبراطوريّة، الدراسات ما بعد الكولونياليّة" والمنشور بمجلة "نزوى"، ع54، عمان، يناير 2006 على الرابط : http//www.nizwa.com

- علاء أبو زينة: الإمبراطوريّة تردّ كتابة، النظرية والتطبيق في آداب ما بعد الاستعمار، وذلك في ترجمته لعرض "دوايت غارنر " :"تشينوا أتشيبي": مواجهات مع الكثير من قلوب الظلمة" على الرّابط: http://www.alghod. com

- يحي بن الوليد: الإمبراطوريّة تردّ كتابة، النظرية والتطبيق في آداب ما بعد الاستعمار، وذلك في مقال له بعنوان "خطاب ما بعد الاستعمار" على الرابط : Maktoob . com . http://goutaliezzedine

- خالد سليمان: الإمبراطوريّة تكتب الرّد، النظرية والتطبيق في آداب ما بعد الكولونيالية ،وذلك في مقال له بعنوان "أدب ونقد ما بعد الكولونياليّة "مجلة "علامات في النقد"،م14،ج54،النادي الثقافي الأدبي، جدة، المملكة العربيّة السّعوديّة،شوال1425هـ/ ديسمبر 2004.

(01)– جابر عصفور: «أوراق أدبية، موسم الهجرة إلى الشمال»، مجلة العربي،ع562،وزارة الإعلام، الكويت، سبتمبر2005،ص75.

(02)– بيل أشكروفت وآخران، الإمبراطورية ترد بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، ترجمة: خيري دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2005،ص07.

(03)– جابر عصفور: «أوراق أدبية، موسم الهجرة إلى الشمال»، مجلة العربي، ص75.

(04)– بيل أشكروفت وآخران، الإمبراطورية ترد بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، ترجمة: خيري دومة، ص7.

(05)– الإمبراطورية ترد بالكتابة، ص25.

(06)– الإمبراطورية ترد بالكتابة، ص191.